مكتبة ديوان العرب

محمود درويش بين أقلام الناقد الفلسطيني
الدكتور عادل الأسطة

أولا: درويش في جديده: سؤال الكتابة

وأنا أدرس الطلاب نصوص درويش أتوقف أمام لغته التي أنجزت عنها ذات نهار – دراسة مطولة تحت عنوان " محمود درويش ولغة الظلال "، وفيها توقفت أمام دراسة شاكر النابلسي " مجنون التراب "، ودراسة أخرى للناقد المصري د. محمد عبد المطلب تناول فيها دال البحر في أشعار الشاعر.

سيظل سؤال اللغة، وسؤال الشعر، سؤالين مؤرقين للشاعر ولقرائه أيضاً. ما من ديوان شعر أصدره الشاعر منذ " أعراس "(1977) خلا من سؤال الشعر. ومن من مقابلة أجريت مع الشاعر إلا سأله أصحابها عن الشعر واللغة. وما من دارس لأشعار الشاعر إلا أتى، من قريب أو من بعيد، على سؤال اللغة وسؤال الشعر. الغموض والوضوح. الشاعر والجمهور. وسأنجز شخصياً دراسة عن تنظير الشاعر، في أشعاره، للشعر، وسأنشرها في مجلة الأسوار في عكا في العام 2004.

سأسأل طالبة متخصصة في البلاغة، بعد أن أخبرتني عن تخصصها، عن المجاز في قول درويش، في قصيدته " نزل على بحر " من ديوان " هي أغنية .. هي أغنية "(1986):

" كم قمرْ
أهدى خواتمه إلى من ليس منّا "

وستحار الطالبة، تماماً كما يحار الطلبة أنفسهم، في مرحلة

في " في حضرة الغياب " يسلم الكاتب قراءه مزيداً من المفاتيح لقراءة أشعاره وكان في " ذاكرة للنسيان " أتى على هذا، حين أورد لنا حواراً جرى بينه وبين مقاتل سأله عن معنى البحر في شعره، لأن البحر ذو دلالة رمزية، كما فهم المقاتل من قراء أشعار الشاعر. وهناك، في الحوار، كان الشاعر يحار في تفسير شعره، فقد قال إنه يعجز عن تفسير شعره، أو إنه يعجب من عجب المقاتل لعجز الشاعر عن تفسير شعره. هنا في " في حضرة الغياب " تزول الحيرة، ويدرك الشاعر جيداً من أين تأتي الاستعارة، من أين يأتي المجاز.

حين يستحضر الشاعر طفولته وهجرته من فلسطين إلى لبنان، وعودته إلى فلسطين، بواسطة سمسار حنين، يلفت نظرنا إلى ما كان أهله يقولونه له، حين يرون الدوريات الإسرائيلية. ولم يكونوا يقولون ما يقولون بلغة مباشرة. كانوا يخيفونه من الضبع، فيعجب، هو الطفل، كيف يقود الضبع سيارة، ويعقب: " لم تعرف المجاز بعد، فلم تعرف أن الضبع هو " حرس الحدود "(ص44). وكان قبل هذه الصفحة بصفحات أتى على تعلمه القراءة. كان يقرأ ولا يفهم ما يقرأ، ومع ذلك كان يواصل القراءة مستمتعاً " بقدرة الكلمات على الاختلاف عن العادي "(ص30) و " ثمة شيء يتزيّا بالغامض، لا يشم ولا يلمس ولا يتذوق ولا يبصر، هو ما يجعل الطفولة حاسة سادسة " وهذا ما جعلهم يسمون الشاعر بالحالم " من فرط ما ركبت للكلمات من أجنحة لا يراها الكبار، وتحرشت بالغامض واغتربت "(ص31).

ودرويش الذي بدأ شاعراً ملتزماً بقضايا وطنه، وبقضاياه القومية والأممية، وكان مهتماً بسؤال الموضوع، أكثر من اهتمامه بسؤال الشكل، فهو القائل:

" قصائدنا، بلا لون
بلا طعم .. بلا صوت !
إذا لم تحمل المصباح من بيت إلى بيت!
وإن لم يفهم البسطا معانيها
فأولى أن نذريها
ونخلد نحن .. للصمت "

درويش ظل مؤرقاً بسؤال الموضوع .. وسؤال الفن. وهذا ما يبرز في " أعراس "(1977)، وتحديداً في قصيدة " وتحمل عبء الفراشة "، وهذا ما يبرز أيضاً في " جدارية "، وإن اختلف درويش في هذه، عن درويش في " أوراق الزيتون "(1964)، فالشاعر الذي كانت كلماته أعاصير وزلازل، ما عاد النبي

يكتب درويش عن فهمه للشعر في شبابه: " وعندما اشتد عودك صار يبدو لك أنك أبو أبيك، ويبدو لك أن للشعر قدرة على إجراء تعديل ما في المصائر، فرحت تبني بيوتاً خيالية من حطامك ومن أسماء النبات والجماد، ليقف المكان مكانه، وتعود الحياة إلى ما يشبه الحياة "(ص163).

غير أن الشاعر، بعد ذلك، ما عاد يسأل: ماذا أكتب؟، بل كيف أكتب؟ (ص99). هل غدا الشاعر بنيوياً بالكامل؟ لا أظن ذلك، وقد لا أذهب بعيداً حين أقول إنه ما زال يسأل: ماذا أكتب؟ وإن طورها إلى كيف، ليتلازم السؤالان معاً.

ثانيا: درويش في جديده: سؤال الزمن

سيلتفت قارئ نص محمود درويش الجديد إلى سؤال الزمن من زوايا عديدة، بعضه أثاره الشاعر وبعضها لم يثره. بعضها " توقف أمامه مباشرة وكتب عنه، وبعضها يدركه من يدرس الزمن في النصوص الأدبية، اعتماداً على مقولات المنظرين الذين أفردوا لهذا العنصر مساحات واسعة من كتبهم، بل إن بعضهم خصص كتاباً له مثل (لانداو) في كتابه: " الزمن والرواية ".

كم زمناً يستحضر محمود درويش في كتابه هذا الذي قسمه إلى عشرين قسماً. من المؤكد أن الزمن الكتابي متقارب، ويستطيع المرء أن يحدده، وقد يسعفه الشاعر في ذلك حين يجيب عن السؤال التالي: متى بدأت تكتب نصك؟ ومتى فرغت من كتابته؟ والزمن الأكثر تحديداً هو زمن النشر، فقد ثبته الناشر على صفحات الكتاب [2006].

نحن في النص أمام زمن الكتابة، وهو هنا يتطابق وزمن المخاطِب [بكسر العين/الطاء]، ولكنه لا يتطابق وزمن المخاطَب [بفتح العين / الطاء] فأزمنة هذا عديدة ويستطيع المرء أن يحددها، إذا ما حدد زمن الكتابة بالضبط وعرف متى ولد محمود درويش، بل ويمكن أن يرسم لها خطاطة ويوزعها على الفصول، إذا كان معنياً بذلك. كأن يكون على النحو التالي:

[زمن المخاطَب]	الزمن المستحضر	الزمن الكتابي [زمن الخطاب]
الطفولة	1946	2006
الهجرة إلى لبنان والعودة	1948	2006
الرحيل عن حيفا	1970	2006
الخروج من بيروت	1982	2006
العودة إلى غزة	1995	2006
العودة إلى الضفة	1996	2006

وهكذا دواليك، علماً بأن هذه الأزمنة، وتحديداً الزمن المستحضر، ليست مرتبة ترتيباً دقيقاً هنا، كما هي هناك في النص، فأنا لم أقم بجردة حسابية هندسية دقيقة، وإنما أعتمد على قراءة أولى وثانية للنص، إذ كنت ألاحظ أن المؤلف يتدرج في استحضار الزمن، بادئاً من الطفولة منتهياً إلى الزمن الحالي زمن الكتابة.

وربما لاحظت، بناءً على معرفتي بما ألم بالشاعر من أحداث، مثل مرضه في العام 1997 أو العام 1998، أن هناك خللاً في بنية الزمن في النص، وهو ما يبدو في المقطع الثالث عشر (XIII)، حيث يكتب الشاعر عن مرضه في باريس وعملية القلب التي أجريت له. اللهم إلا إذا كان الشاعر مرض غير مرة، وخلط بينها. وإذا ما كان يكتب عن مرضه في العام 1997 فقط وجب أن يكون هذا المقطع تالياً للمقطع الذي يتحدث فيه عن عودته إلى فلسطين في العام 1996 – أي تالياً للمقطع السادس عشر.

ومن المؤكد أن الزمن المستحضر زمن إشكالي، لأن درويش لا يكتب عن أحداثه كما حدثت بالضبط، وإنما يكتب عنها كما يتذكرها، يكتب عما بقي عالقاً منها في الذاكرة، وكما يراها هو الآن، لا كما رآها طفلاً. هنا تتشابه الكتابة وكتابة السيرة الذاتية، وهنا يختلف درويش في كتابته عن كتابته في كتابيه النثريين: " يوميات الحزن العادي "، و " ذاكرة للنسيان ". في الأول الزمنان: زمن الخطاب وزمن المخاطَب متطابقان، وفي الثاني كان كذلك في أكثره، إلا في المقاطع التي كان درويش فيها يستحضر الماضي ورموزه.

وإذا ما بحث المرء عن ديوان شعري لدرويش يقترب في بنائه الزمني، من بناء " في حضرة الغياب " الزمني، فإن ضالته ستكون في ديوان " لماذا تركت الحصان وحيداً ؟ "، ففيه استحضار لأزمنة متعددة من حياته: الطفولة، والهجرة، والعودة، والسجن في فلسطين، والرحيل، واتفاقات السلام ... الخ. هنا يستحضر درويش في العام 1994 أحداثاً ماضية مر بها وشعبه. ولعل

في أثناء قراءة " في حضرة الغياب " و " لماذا تركت الحصان وحيداً ؟" يستحضر المرء مقولة نظرية التلقي محوراً فيها. فإذا كان أصحابها يقولون: إن قراءة نص واحد من القارئ نفسه في زمنين مختلفين تؤدي إلى قراءتين مختلفتين، فإنني أقول: إن الكتابة، عن حدث واحد يمر به المرء، في فترتين مختلفتين، تؤدي إلى كتابتين مختلفتين. وربما تذكرت هنا ما كتبته عن رواية إلياس خوري " يالو "، هذا الذي يطلب منه أن يكتب سيرة حياته غير مرة، فيضيف ويحذف ويغير في الأسلوب.

ويلتفت درويش في كتابه / نصه " في حضرة الغياب " إلى الزمن، لا من الزاوية التي كتبت عنها، وإنما من زاوية أخرى. يلتفت إلى نظرته للزمن شاباً، ونظرته إليه الآن، ويعقد فصلاً من فصول الكتاب لهذا، هو الفصل العاشر، وإن لم تخل فصول أخرى من الإشارة إليه. كان الزمن، ودرويش شاباً، يسير بطيئاً، لكنه أخذ، ودرويش كبيراً، يسير سيراً سريعاً. وهذا ما يقوله في المقطع الأخير:

" الزمن نهر سلس لمن لا ينتبه إليه، وحشي شرس لمن يحدق إليه، فتخطفه الهاوية "(174).

لعل هذه المقالة خطاطة للكتابة عن الزمن ليس أكثر !!!

ثالثا: درويش في جديده: سؤال النوع

عرف درويش شاعراً بالدرجة الأولى، وقرّ قراره على أن يخلص للشعر، وأن يكون شاعراً أولاً، علماً بأنه كتب المقالة بنوعيها: الأدبية والصحفية، حين كان كاتباً في " الاتحاد " الحيفاوية، ومحرراً في " الجديد " الحيفاوية أيضاً، وحين غدا كاتباً في " شؤون فلسطينية " وفي " السفير اللبنانية " ولما أقام في باريس تبادل الرسائل مع سميح القاسم، ونشر له وللقاسم كتاب في هذا النوع الكتابي.

وقارئ شعره يلحظ أحياناً اختلاط الشعر بالنثر، وإن كان هذا قليلاً في أشعاره الأولى، وفي مقالاته الأولى، ذلك أنه شاعر يأسره الإيقاع. ولعل بوادر النثر في الشعر بدت في " أحبك أو لا أحبك "(1971)، وكتابة المقالة التي لا تخلو من روح شاعرية بدت في " يوميات الحزن العادي "(1973)، وتوطدت في " وداعاً أيتها الحرب، وداعاً أيها السلم "(1974). وستكون مجموعته الشعرية " سرير الغريبة "(1999) من أفضل النماذج التي كتبها، واختلط فيها الشعر بالنثر، وكان سؤال النثر والشعر بدأ يلح على ذهن الشاعر، وقد بلغ مداه حين صدّر ديوانه " كزهر اللوز أو أبعد "(2005) بمقولة التوحيدي التي التفت إليها بعض من كتبوا عن الديوان: " أحسن الكلام ما قامت صورته بين نظم كأنه نثر، ونثر كأنه نظم ... "، وربما احتاج موقف درويش من النثر والشعر، وموقف النقاد من هذا، ورأي درويش في قصيدة النثر، وقد أتى على هذا في مقابلات عديدة، ربما احتاج هذا كله إلى وقفة مطولة.

في " في حضرة الغياب " الذي صدره درويش ببيت شعر لمالك بن الريب، لا دلالة له بالشعر والنثر كما هو الحال في " كزهر اللوز .. أو أبعد "، وإنما له دلالة بالبعد – أي الابتعاد عن الحاضر والغوص في الماضي البعيد للمتكلم ولمن استعار قوله، حيث يبعد درويش عن حاضره ويعود إلى طفولته، إلى ستين عاماً خلت، في " حضرة الغياب " يختار درويش كلمة " نص " ليحدد (الجندر) (النوع) (الجنس) الأدبي لكتابه. ومن يقرأ كتاباً مثل " دليل الناقد الأدبي " للناقدين سعد البازعي وميجان الرويلي، يقرأ تعريفات عديدة لمفردة النص، فهناك النص المغلق، وهناك النص المفتوح، وهناك خصائص لكل منهما، وقد يختلف الدارسون حولها. ودرويش اكتفى بكلمة واحدة هي " نص " ولم يتبعها بكلمة أخرى، ربما يريد أن يترك هذا للدارسين.

وإذا كان بعض النقاد العرب القدامى لم يميزوا بين الشعر والنثر على أساس الوزن والقافية، وهذا ما يقوله أيضاً نقاد محدثون، إذ هناك كلام موزون مقفى لا يدخل في باب الشعر، وهناك كلام ليس موزوناً ومقفى ولكنه أقرب إلى الشعر منه إلى النثر، إذا كان بعض النقاد القدامى وبعض النقاد الجدد يقولون هذا، فأين ندرج نحن " في حضرة الغياب "؟

ربما رأى فيه قراء كثر شعراً أكثر مما رأوا فيه نثراً. ربما. وربما رأى فيه آخرون تزاوجا بين الشعر والنثر، فهناك صفحات أقرب إلى النثر، وهناك مقاطع أقرب إلى الشعر. وربما تذكرنا هنا كتابات درويش التي نشرها في الكرمل، ثُمَّ عاد إليها وحذف منها ما حذف، وأعاد نشرها في مجموعات شعرية، مثل كتابته في رثاء ماجد أبو شرار " صباح الخير يا ماجد ". لقد أعاد نشر ما نشره ابتداء في " الكرمل " في " حصار لمدائح البحر "، ومن يقارن بين الصيغتين يلحظ الاختلاط، ويلحظ أن نص درويش الجديد " في حضرة الغياب " أقرب إلى

في صفحات عديدة يحدد درويش، خلافاً لما كتبه على صفحة الغلاف، نوع كتابه الجديد، بوعي أو دون وعي، وينعته بأنه خطبة. (الصفحات: 167، 171، 173، 177، 180). وكان الشاعر استخدم هذه المفردة، وهو يكتب الشعر ونصوصاً أخرى. على سبيل المثال كتب مرة في أوساط الثمانينيات، على صفحات " اليوم السابع " (باريس) مجموعة نصوص تحت عنوان " من خطب الدكتاتور الموزونة "، ولم ينشرها حتى اللحظة في كتاب. ونشر في مجموعة " أحد عشر كوكباً " (1992) قصيدة عنوانها " خطبة الهندي الأحمر " ما قبل الأخير، أمام الرجلِ الأبيض ". إنها خطبة موزونة، إنها شعر، وهي تختلف عن مفردة كلمة وخطَب في نصوصه " من خطب الدكتاتور الموزونة "، فلفظة الجمع خُطب مفردها خطاب، لا خطبة. ودرويش في نصه الجديد " في حضرة الغياب "، لا يستخدم كلمة خطاب، وإنما يستخدم كلمة خطبة. وهكذا نجده، في نهاية نصوصه يحدد نوع الجنس الأدبي لكتابه.

هل كتاب درويش إذن ليس شعراً وليس نثراً وليس مقالة وليس رسالة؟ هل هو نص أم خطبة؟

سأدعو لدرويش بطول العمر، وسأتذكر وأنا أقرأ نصه أمرين اثنين، أولهما

الدكتور عادل الأسطة